حديقة المقتطف

سرفانتس ودونه كيشوت

ومكانتها الادبية

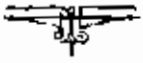

كواكب موحدة

في الادب الاسباني

يرتقي اللسان الاسباني على الرغم من كونه جرمانية وعربية دخيلة فيه انتقلت اليه عن طريق القوط والعرب ، الى اللغة اللاتينية فيشبه في ذلك اللغتين الفرنسية والايطالية . ولكن اللغة اللاتينية في اسبانيا كانت لهجات مختلفة منها القطلونية والبلنسية والقشتالية وغيرها . الا ان اللهجة القشتالية تغلبت على اللهجات الباقية ، على اثر حوادث وانقلابات اجتماعية وسياسية ، فاصبحت هي اللغة الاسبانية ، يتكلم بها النبلاء ويكتب بها الكتّاب . وتحوّلت اللهجات الاخرى الى لهجات عامية

وقد كانت السمة الغالبة على الادب الاسباني ، خلال قرنين ونصف قرن ، اي من منتصف القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر ، سمة قصائد دينية ووطنية وعظات خلقية منظومة . وهذه القصائد لها أبعد الاثر في تكوين الادب الاسباني . فكانت القصائد التاريخية ، قطعاً من الملاحم القديمة ، او اناشيد شعبية ، حفظت ونقلت بالرواية من قرن الى قرن . اما القصائد الغنائية والعاطفية والريفية وما اليها ، فقد نظمت في الغالب وافرغت في اشكال تختلف عن الاشكال التي تحدّرت الى أهل هذا العصر . وقد طبع بعضها اولاً في مطلع القرن السادس عشر ثم تلتها مجموعات اخرى تحتوي على هذا الشعر الحيّ

وليس في وسع الباحث ان يبالغ في وصف ما لهذه المجموعات من القيمة في دراسة الادب الاسباني ، بل وحياة اسبانيا القومية ، لان هذه القصائد مطبوعة بطابع الشعب وصفاته من اقدم الازمنة ، فهي في الواقع لوحة رسمت عليها صورة الماضي رسماً تامًّا . هنا الملوك والامراء والفرسان والفرسوس والفلاحون والمتسولون والمتشردون — تجدهم يروحون ويجيئون في هذه القصائد كأنهم احياء يرزقون

يقول « مريميه » Mérimée في كتابه « تاريخ الآداب الاسبانية » ان هذه الاناشيد تحتوي على تاريخ اسبانيا ، على حضارتها ، على حياتها مركزة في هذه المادة الشعرية مبلورة على مر الزمان في صفحاتها . انها تختلف قدراً وشاعرية وصفاء ولكنك تجد البساطة والجفاء في اقدمها وهما بساطة الحياة البدائية وقساوتها ، وتجد الرشاقة في ما

[illegible] عصر النهضة . والفرق [illegible] في انحدار العصر الذهبي

[illegible] من الاطلاع [illegible] كانت [illegible] حقيقة ام خرافة ، طويلة من القصائد خاصة بفرنسا . ولا يقل عنها [illegible] القصائد الخاصة بالسيد كومبيدوور عن ملوك انجلترة . وسنها ما هو مرتوف على آخر ايام الملوك رودريك ، او على حروب الاسبان مع العرب ومن اشهرها « زفرة العربي الاخير » في عبد الرحمن الذي عجز عن حماية غرناطة . ولا ريب في ان قدرة القصائد المرقومة على حروب الاسبان والعرب ، يتبين فيها نوعاً من الهام العاطفة . فصلت تارة بالدرامة الاسبانية بعد ذلك

سرفانتس وروس كيشوت وسانشوا

سرفانتس اشهر ادباء الاسبان على الاطلاق . وكتابه دون كيشوت من الكتب التي احرزت صيتاً عالمياً قبل عصر السيارة والطائرة والبرق وجوائز نوبل . ولكن مكانة سرفانتس ولاسيما مكانة كتابه هذا لا يمكن ان تفهم الا اذا اشرنا اشارة موجزة الى « رواية الفروسية » التي كانت ذائعة في اواخر القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر في اسبانيا وأشهرها رواية الامادي ده غول Amadis de Gaule ويقال انها ترتد الى اصل فرنسي ولكنها نقلت وحولت حتى توافق الحياة الاسبانية بقلم جارسيا اوردونز ده مونتالفو في العقد الاخير من القرن الخامس عشر . في هذه القصة كان الشاب اماديس مغرماً بالاميرة اوريان ابنة الملك لزوار ، فنشأ فارساً يجمع في شخصه جميع الفضائل التي اشتهر بها فرسان ذلك العصر . فهو عاشق مقيم على الحب وخادم عظيم الولاء لسيده ومقاتل شجاع بارع في فنون القتال فينتصر في جميع مغامراته على الجبابرة والخونة في آن والرواية حديث مغامراته المختلفة

وقد ظهر بعد هذه الرواية ، روايات على غرارها ، فيها مغامرات فرسان مختلفين

وكان الى جانب رواية الفروسية الاسبانية نوعان آخران من الرواية في ذلك العصر احدهما الرواية الريفية ، تقرأ الآن فاذا هي نائية عن حقيقة الطبيعة . فالطبيعة فيها مصطنعة ، والشعور الانساني مصطنع ، وكل ما فيها مصطنع تقريباً ولا سيما ما كان ينسب فيها الى السحر . ولكن النقاد يفسرون شيوعها بقولهم انها كانت تدور من حول اشخاص عاشوا حقيقة في ذلك العصر فكان يلذ لمعاصريهم ان يقرأوا سيرهم مفرغة في هذا القالب . اما النوع الثالث من الرواية فكان النوع المعروف برواية التشرد

أن يعمد المؤلف الى الاستغناء عن الامراء والاميرات بل وعن رجال الطبقة المتوسطة من الناس ، لكي يتخذ من السوقة والمتشردين والمتسولين أبطالاً لرواياته. وقد شاع هذا النوع من التأليف من منتصف القرن السابع عشر الى القرن الثامن عشر

وكتاب دون كيشوت ، مريح في الواقع من النوعين الاول والثاني ، ولكن عصا الساحر التي مزجت ، واخرجت المزيج الجديد ، كانت قلم كاتب عبقري هو صاحبنا ميغويل سرفانتس

ولد في ٢٩ اكتوبر سنة ١٥٤٧ في الكالا دي هناريس وهي بلدة في قشتالة الجديدة ، وكان من اسرة فقيرة ولكنها نبيلة ، ومع ان الكتّاب لم يشيروا في الترجمة له الى انهُ تلقى العلوم في جامعة من الجامعات ، الا انهُ ولاريب توفر على دراسة اللغة اللاتينية . فلما كان في العشرين من العمر اضطرَّ ان يرحل من وطنه لانهُ تجرأ على تجريد السيف في باحة قصر يقطنهُ الملك . وفي سنة ١٥٧٠ نفرأ عنهُ في روما في منزل الكردينال كاقيفا ثم انتظم في الجيش واشترك في معركة لپانتو في سنة ١٥٧١ فأصيب بجروح عديدة بالغة وكسرت ذراعهُ اليسرى بقنبلة اصابتها فاضطر الى بترها

وكان عائداً مع شقيقه الى اسبانيا في سنة ١٥٧٥ رجاء ان يفوز بقيادة فرقة من فرق المشاة ، فهجم قرصان جزائريون على السفينة ، فأُخذ مع سائر الركب أسيراً . حاول غير مرة ان يفر من الاسر ولكنهُ اخفق فشدَّ وثاق الاسر من حوله. وكانت اسرتهُ قد علمت بمصيره ومصير شقيقه فجمعت مبلغاً من المال لافتدائهما فلما وصل المال الى آسريهما ، رأى المبلغ يسيراً فأطلق سراح شقيقه واستبقاهُ الى ان كانت سنة ١٥٧٩ فعاد الى اسبانيا. وقد روى حوادث أسره في كتابه « الأسير ». ويقال ان سرفانتس اشترك في حملة دوق البا على البرتغال سنة ١٥٨١ ولكنهُ لم يلبث حتى ترك الجندية وشأنها

نشر في سنة ١٥٨٤ رواية « غالاتية » فأصابت نجاحاً يذكر تشجعهُ ذلك على الاقدام على التأليف المسرحي ، ولكن قلما يقرأ من مسرحياته العديدة الآن سوى مسرحية أو اثنتين . وعلى الرغم من الاقبال على مؤلفاته ظلَّ رقيق الحال ، فذهب الى اشبيلية حيث شغل منصباً في مكتب مدير شؤون أساطيل العالم الجديد . ثم انتقل الى غرناطة . وقد اتهم في كلتا المدينتين تهماً لو صحت لآذنهُ في شرفه ، ولكن

هي سؤر خيل تحسر على ان ما تشربه يابس ، فلذلك صار من قلبه يرشح بعثة تكاثر الماء على الارض من كل ناحية في الحين

طبع الجزء الاول من كتاب دون كيشوت سنة ١٦٠٥ فلقي رواجاً عظيماً وبيع منه في بضعة اشهر ستة آلاف نسخة . وقد ترجم كتاب دون كيشوت الى الفرنسية حالاً ثم لم يلبث ان ترجمهُ الى سائر اللغات . وانقضى على اثر سنوات قبل نشر كتاب آخر ، فكان هذا الكتاب مجموعة من القصص الادبية والمضحكة وهي قصص يجسمها الانسان آناء الليل وأطراف النهار ، لانها وصف دقيق بارع لخلق الانسان في ولايات اسبانيا المختلفة . وقد كان المؤلف يستعد لاصدار القسم الثاني من كتابهِ دون كيشوت ، اخرج مؤلف يدعى الونزو فرنانديز دالالايدا كتاباً زعم انهُ خلق بكتاب دون كيشوت الاول . وقد تحامل المؤلف في فاتحة كتابهِ على سرفانتس وأخذ عليهِ ذراعهُ المبتورة وادّعى انهُ لن يلبث ان يلقى بكتابهِ هذا ستاراً كثيفاً من النسيان على دون كيشوت وصاحبهِ . ولكن هذا المتحامل لم يصب من النجاح الا ما كان مبعثهُ الرغبة في الاطلاع على كل شيء جديد ، وكان من حسنات كتابهِ انهُ حمل سرفانتس على التعجيل في اخراج الجزء الثاني من كتابهِ فأخرجهُ في سنة ١٦١٥

وكانت صحتهُ قد اعتلت ولكنهُ على الرغم من اعتلالها ، ظلَّ مكبّاً على اتمام رواية اراد ان يقدمها الى امبره وحاميهِ كونت ده ليموس . الاَّ ان علتهُ تفاقمت قبل اتمام الكتاب فلفظ نفسهُ الاخير في ٢٣ ابريل سنة ١٦١٦ — في نفس السنة بل وفي نفس الشهر الذي مات فيهِ شكسبير

بطل سرفانتس في كتابهِ دون كيشوت ، رجل في الخمسين من العمر يقطن قرية مع مدبرة بيتهِ العجوز وابنة أخيهِ وهي فتاة في العشرين من العمر ، ويتفق معظم وقتهِ في مطالعة قصص الفرسان ، معجباً بمغامراتهم اعجاباً ملك عليهِ لبَّهُ ، فتصوّر في أحد الأيام ، انهُ يريد ان يمعن في شخصيهِ بطولة أولئك الفرسان الخياليين. وكان سرفانتس يعلم ان محاولة من هذا القبيل ، والزمن أواخر القرن السادس عشر ، كان مقضيّاً عليها بالخيبة وعلى صاحبها بأن يكون مضغة في الافواه ومحطّاً للسخرية الساخرين فجعل ذلك مدة كتابهِ . وبحث دون كيشوت في قبو داره فوجد بقايا درع وخوذة وسيف فرمّها وصقلها ثم لبس الدرع والخوذة في صباح يوم وتقلّد السيف ،

وخرج من الدار من دون ان يعبأ بسيرة بيته ولا بنته أخيه ولا اخوته وتشتى جواداً متهدماً سماه « بريسنه » واخذ سبيله الى تخليص أبيه وهي عذاب الفقر والذل الارملة واليتيم ووضع الحق في نصابه بعد ان رأى حقاً مهضوماً

الا ان الفارس الجديد يرى الفقير يجب ان يفعل كل شيء في سبيل هوى سيدة يلقى عند أقدامها ثمار مغامراته ، فتذكر فتاة قروية حسناء تقطن قريته فورزو ، فأطلق عليها في ذات نفسه اسم « دولسينه ده توبوزو » ووقف على ذكرها مقدماً جميع انتصاراته الباهرة . ثم انهُ لا يستطيع ان يمضي في سبيله المرسوم قبل ان يمسح فارساً لانهُ اذا لم يفعل فالتوفيق ان يكون من نصيبه . فقرر ان يطلب من اول فارس يلقيه أن يمسحهُ فارساً . هو ذا قصر ، وأمام القصر سيدتان نبيلتان تتحدثان أمام الباب . وهوذا خادم يقرع الجرس منبئاً بقدومه والأمير يتقدم للقائه . . . . ولكن هذا القصر ليس الا في مخيلة دون كيشوت . . لأن ما رأى لم يكن الا فندقاً حقيراً والسيدتان النبيلتان ليستا الا خادمتين ، والأمير ليس الا صاحب الفندق

وكذلك حوّل دون كيشوت بسحر رشاته وأمانيه ، حقائق العالم الواقع الى صورة رائعة لا وجود لها الا في ذهنه . وأدرك صاحب الفندق ما بالرجل من مس ، فسمح لهُ ان يتصوّر الفندق قصر أمير كبير ، وفي الصباح وسمهُ فارساً ، فأحسّ دون كيشوت بعد ذلك بأنهُ أصبح قادراً على جميع أعمال البطولة ، وسار في طريقه

واذ هو سائر استوقفهُ صراخٌ في الغابة فسدّد خطواته الى مصدر الصوت فوجد فلاحاً منهالاً بالضرب على فتى موثق الى جذع شجرة . فحتم على الفلاح ان يفكّ عقال الفتى ويعوضهُ من ظلمه لهُ وجوره عليه . ومضى في طريقه جذلاً بانتصاره الاول . ولكنهُ ما يكاد يبتعد حتى عجم الفلاح على الفتى ثانية وأوسعهُ ضرباً ولكماً وجرده مما يملكه من النقود

ثم يشاهد دون كيشوت تجاراً سائرين الى بلدة مجاورة فخطر له ان يحملهم على اعلان دولسينه ده توبوزو (محبوبته الوهمية) أجمل نساء الكون فيردّون عليه رداً ساخراً لاذعاً في سخريته فيقضي دون كيشوت رمحهُ ويهجم عليهم ، فيكبو به جواده ويقع صغراً بالتراب ، فيتناول احد التجار رمحهُ ويقصفهُ على ظهره ويظل هو ملقياً على الارض حتى يمرّ به فلاح فينقله على ظهر حماره الى داره

كانت مصرية اقل رياضة ، فيارا ، وصاحبة النفيس واخلاقاً . فقد تركوا ان في اعماق هذه الروايات قد احدثت اخلالاً في عالمه ، فاختلفوا فرصة ليرتبة الفراش بعد واقعته الاخيرة ، وحرقوا الكتب وكسروا كل حجرة للكتبة . فلما عاد الى الشقاء وجد من كتبه ورجد بعدها يبحث في دهليز ان ساحر سحره

الا انه لا يستطيع ان يستقر حتى يريد ان يرحل رحلة ثانية ، ان يصحب سائلاً ، فاختار فلاحاً فقيراً من قريته يدعى سانشو بانسا وغرس فيه مبادئه التي تحركه ، ورسم له بأزهى الالوان صوراً تسحري ووعده بأن يعينه حاكماً على الجزيرة الاولى التي يتاح له غزوها وافتتاحها . فاقتنع الفلاح مأخوذاً بهذه الصور الخلابة وفي ذات مساء ، سافرا معاً دون ان يعلم احد بسفرهما ، دون كيشوت على صهوة دوسينات وسانشو بانسا على حمار محمل . ومن الواقعة الاولى التي رفعت هذا الشهر وقائع الكتاب . ذلك انهما ابصرا وهما سائران طواحين الهواء ، فقام في ذهن دون كيشوت انها جبابرة مردة ، فانقض برمحه وحث جواده وهجم عليها ، على الرغم من تحذير صاحبه وبيانه . ولكنه خرج من المعركة مثخناً بالجراح والرضوض ، الا ان اصابته لم تصلح من شأن عقله لانه ظل معتقداً ان اعداءه السحرة الذين سحروا كتبه قد حولوا المردة الى طواحين

ثم يلي ذلك سلسلة من الوقائع ، نكتفي بالاشارة اليها . هوذا دون كيشوت يلتقي بعربة يتوهم ان فيها اميرة اخذت غصباً فيحاول انقاذها . ثم تراه يلتقي جماعة من الرعاة فيستقبلها كأنها جماعة من الاصدقاء المقربين ويصف لها وصفاً شعرياً بديعاً العصر الذهبي او تقرأ عنه وهو يهاجم قطيعاً من الغنم فيتوهم في ذهنه انه جيش امبراطور

وبعد مرض طويل ، يستعيد صحته ويبدو لمن حوله انه استعاد صحة عقله كذلك . ولكنه كجميع المجانين ، يثور جنونه عند ذكر « الفروسية » . فتحرك في هذه النزعة من جديد ليقوم برحلة ثالثة في سبيل احقاق الحق وازهاق الباطل ورد الظالمين وثأر المظلومين باسم السيدة الفاتنة التي يهواها . وكان بين صحبة رجل شجعه على ذلك يدعى كارسكو . فيوفد دون كيشوت تابعه سانشو الى تحية السيدة الفاتنة في قصرها الفخم ، وعندما يقنعه كارسكو بان فاتنته آتية لقائه ، فيذهب في سبيل اللقاء ولكنه عند ما يرى طائفة من اسافل الفلاحين على حمير يتوهم ان

ساحراً شريراً استطاع ان يمسخ الجمال قبحاً والنبل سفالة . وها هو يستريح في غابة يحتمي به فارس يصحبهُ تابعهُ . فيشرع هذا الفارس في تعديد محاسن دلسينيه التي ينتمي لهُ دون كيشوت محاولاً ان يحملهُ على الاعتراف بتفوق دولسينيه — فاتنة دون كيشوت — عليها . فيفضي الجدال الى النزال ، فيتغلب دون كيشوت على خصمه فيجثو هذا امامهُ طالباً الرحمة والشفقة — ثم يتبين لهُ ان هذا الفارس المغوار الذي تغلب عليه ليس الاَّ صاحبهُ كارسكو . ولكن دون كيشوت لا يصدق الاَّ ان الساحر مسخ الفارس المغوار هذا الصاحب الكريم . وكان الغرض من هذا التدبير اقناع دون كيشوت بالعودة الى داره ، ولكن فوزه هذا يغريه ، بالسير ، فيحتضر بعد قليل مسرحاً للدمى فينحاز الى الأميرة مليزان التي ساها العرب فيتضي سيفهُ ويعمله في الدمى انتقاماً لها

سلسلة من الحوادث لا ينقطع سيلها ولا ينضب فيها معين الابتكار . واخيراً يعود الرجل الى قريته وقد شفي من جنونه ، والواقع انهُ مرض مرضاً مميتاً فشفاه المرض الجثماني بما ألمَّ بعقله فينكر ويستنكر ما حاولهُ من المغامرات المضحكة ويودع وصيتهُ أحكم الاقوال ويقضي نحبهُ تائباً ورعاً

ما اكثر ما كتب في اسبانيا وايطاليا وفرنسا والمانيا وانكلترا في سرفانتس وآيته دون كيشوت ومقامها في الادب العالمي . ما اكثر ما بحث الكتاب في البواعث التي حملت الكاتب على كتابتها والاغراض التي اتجه اليها . لماذا احرزت هذه الرواية وهي من بدئها الى نهايتها سلسلة من المغامرات تنطوي على سخرية من المثل الفروسية، اقبالاً عظيماً في اسبانيا حيث يقدس الشرف ويعبد بعد الله ؟ ولماذا احرزت اقبالاً في سائر بلدان اوربا ؟ مسألة صعبة قد لا يمكن الاجابة عنها الاَّ بتجزئتها

اما من حيث البواعث والاغراض فيلوح لنا ان رأي مريميه هو اقرب الآراء الى الصواب قال : يبدو لنا ان سرفانتس انما اراد عند ما عزم على كتابة هذه الرواية ان يضيف رواية اخرى يملي بها قراءهُ بما يقع لرجل غريب الاطوار شاذ الطبع من الحوادث . وكانت السخرية في ذلك العصر من ابرز الصفات في الادب . بل لقد قال هو نفسهُ ان غرضهُ كان السخرية من روايات الفروسية التي كانت قد أصبحت في ذلك العصر كتلة من الاكاذيب . ولكن ايًّا كانت البواعث التي حملتهُ على الشروع في

التأليف فالا ويصف أن مدرفا عند شروع الرواية عن بؤس من المصف ، ومرض فيسنا ... أن يسمع هذا الخبر لا يحيحث بريشة سرفانتس الاجتماعي الاسباني في هذا العصر فيلائم ويوسعه ما من أنه ، فيسعى ويجاوز ويلائم ويشرح ويفلاحه وغوانيه

ويكاد يكون من المؤكد أن روايات الفروسية ، كانت في ذلك العصر لا تشغل بنفس المكانة التي كانت لها قبلا . ولكن الكتاب اخذوا على كتاب دون كيشوت انه أفضى بسخريته اللاذعة الى النيل من فكرة الشرف نفسها ، وهذا فقد خلو جانب من الصحة . لأن لقب « دون كيشوت » أصبح يطلق بعد ذلك على كل من يحاول التدخل في ما لا يعنيه

الا أنه على الرغم مما وصف به دون كيشوت من صفات الخلق تراه وأنت تقرأ بيانه ما وقع له رجلاً محباً قريباً الى القلب . بل انك تجده ، عند ما لا تكون نزوة الفروسية مسلطة عليه ، رجلاً عاقلاً متزن الرأي ، وقد وصفه سرفانتس وهو يتحدث مع الفلاحين ، حديثاً كله نبل وذكاء ولطف إشارة ولا سيما عند ما كان يصور لهم العصر الذهبي او مع الأسياد يبسط لهم آراءه في التربية

وكثيراً ما كان يفوق صاحبه سانشو بانسا رجاحة عقل واصالة رأي ، وبوجه خاص عند ما كان يلقي عليه النصح في كيف يجب ان يحكم جزيرته الموعومة

ان الجمع في خلق رجل واحد ، بين ما يثير سخريتك واستهزاءك من ناحية ، وحبك واعجابك من ناحية أخرى ، من آثار السحر في ريشة سرفانتس . ولعل هذا هو السر في اقبال الناس على دون كيشوت وذيوع الرواية هذا الذيوع العظيم

اما سانشو بانسا ، فشخصية ابدعها عبقرية سرفانتس ، ليستعملها في المقابلة بين الجنون في سبيل المثل الأعلى ، وخطة الاثرة التي تحرك الناس . بل لعل الصفتين ناحيتان ، من نواحي الانسان الواحد ، يحس بهما وفقاً لتقلب الأحوال عليه ، فهو آناً مثل دون كيشوت في حماسته لمثله الأعلى وأريحيته ، وآناً آخر كسانشو عملي كل العملي في سبيل المصلحة الخاصة الى حد الاثرة

[في الشهر القادم « لوي دي فيجا ومسرحياته »]